

مذهبُ ذو حقيقة مزدوجة

كان طوع يده ، لو فكر العلم في التخلص من الكهنوت ومن الفلسفة الأرسطوطاليسية التي سرعان ما انضوت تحت نير اللاهوت كي يتسنى لها الصمود . ولقد كانت هذه الحقيقة ماثلة أمام رواده : أجل ، إن الشعار الذي كان من الممكن أن يتطلعوا تحت مظلته إلى الانعتاق من الاشراف الكنسي واللاهوتي ، نقله إليهم أحد العرب : ابن رشد الذي أطلقت عليه أوروبا اسم Averros . لقد فرّق بين حقيقتين : الحقيقة التوقيفية لديانة الشعب ، والحقيقة العقلانية لعلم الإنسان . فيها - هكذا يرى - يظهر فارق اجتماعي يقوم على مستويات الثقافة المختلفة . على هذا النحو ، وضع الفلسفة التي كانت ارسطوطاليسية بالنسبة إليه فوق الدين ، وهذا يعني هجوماتٍ مريرةً من جانب المسلمين المتزمتين . والواقع أنه وقف في هاتين الحقيقتين بناءً على فكرين مختلفان وجهاً لوجه : الاسلامية العربية - واليونانية .

إن مجرد المحاولة للتوفيق ما بين كلتا السلطتين ، اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية - الأرسطوطاليسية ، إنطوى في حد ذاته منذ البداية على انفصام ازدواج الحقيقة . الأمر الذي اضطر توماس - أكوين إلى التوفيق بينهما ، لثلا يتغاضى عن الشرخ العميق المتسع بينهما . ولقد رفع سيجر - باربانث راية ابن رشد حول الحقيقة المزدوجة في وجه اللاهوت ، ومن أجل ذلك حكم عليه مرتين ١٢٧٠ و ١٢٧٧ بالاحاد وقضى نجبه في سجنه غيلة . وقد جاء في مرسوم رئيس اساقفة باريس (تيمير) ، الذي كان يقصده ، حين صبّ جام غضبه (لبعته) على تلك الموضوعات بقوله : « ما هو صحيح في نظر العقل ، قد يكون خطأ في نظر العقيدة » ؛ الشيء الذي أكد به دون نجاح استقلالية المذاهب الفلسفية عن العقائد الكنائسية . كفرشينغ في الواقع من منطلق صحة الحقيقة الواحدة للكنيسة الكاثوليكية .

أجل ، أن الشقة الواسعة بين العقل والعقيدة آخذة بالانتساع . وتوسع - وهو رأي دون سكوتوس^(١) DunsScatus - الآن على حساب العلم أيضاً . أما

(١) فرنسيسكاني اسكتلندي . عاش ومات في مدينة كولن بالمانيا .

تلميذه فلهلم فون أوكام W. Occam (١٢٩٠ - ١٣٤٩) ، فقد كان يفرق جيداً بين نطاق العقيدة التي لا تستلزم البرهان ، والتي ليست فوق العقل ، بل مناقضة له ولكل الأفق التجريبي الذي يعتبر أساساً يقوم عليه العلم . والمعرفة - العلم والدين - ينبغي أن يُفَرَّقَ بينهما جدياً - هكذا يريد - كما يفرق بين الملك والكنيسة التي ما عليها إلا أن تقتصر مهامها على التكليف الروحي . وقد تمكن فلهلم هذا من الافلات من سجنه البابوي الذي كان قد أودع فيه بسبب كفره الصارخ في آفجنون مع المعلم إكهارت Eckhart ، حيث هرب إلى القيصر لودفيج في ميونيخ ببافاريا وجرد هناك قلمه لمهاجمة البابوية . وفي مواجهة الهيمنة اليونانية - جنباً إلى جنب مع المدعو فلهلم فون أوكام ومدرسته ، فرضت نفسها الآن رؤية أوروبية للحقيقة بشكل حسم : التجربة الفردية - الخصوصيات - المؤشر على الواقع - التجربة ، المنطق والرياضيات ينبغي أن يفسح الطريق نحو المعرفة الطبيعية بعيداً عن التجريد والعقيدة .

تحرر العلم الأوروبي

في هذا الهواء الطلق نما فرع من فروع العلوم الطبيعية الحديثة ، ذي أهمية خاصة للمستقبل وقدرٍ غير منقوص لذلك العصر ورجالاته الكبار الذين أقاموا مجد العلم عليهم مجتمعين . وقبل كوبرنيكوس ، غاليلي ، كبلر ، ونيوتن بوقت طويل ، طُرحت الممرات التي سيطوي عليها قطارهم الأرض . فمن مدرسة فلهلم الباريسية في أوكام ، برز ثلاثة عباقرة ، فرنسيان والماني واحد . اسماؤهم غير المعروفة تستحق الاهتمام .

يوحنا بوريدان (١٣٠٣ - ١٣٥٨) الذي تقلد منصب رئيس جامعة باريس ولما يبلغ السابعة والعشرين من عمره بعد .

البرت فون ساكش حوالي (١٣١٦ - ١٣٩٠) من مدينة هلمشتست Helmedt ، وهو أول رئيس لجامعة فيينا ، ورئيس أساقفة Halberenshest .

ونيكولاس - اوريسم N. Oresme (١٣٢٠ - ١٣٨٢) من النورماندي ، وهو مربي كارل الرابع من فرنسا ، ورئيس أساقفة Lisieux .

وكما تصدى الفكر الأوروبي بحزم ضد ازدواجية التعاليم المسيحية

والأرسطوطاليسية المهيمنة على كل شيء ، وأرسى تقنية مستقبلية غنية حديثة إلى جانب انقاض الأرسطوطاليسية ، كان مثلاً يحتذى للقوى الشابة ، التي قدرت على التفتح في منأى عن القوالب الفكرية : لقد كان الرسم الأرسطوطاليسي الساخر للحركة ، هو الذي وضع كل جرم سماوي في مداره ، بواسطة مسببات غيبية ، ومحرك أخروي دفعة إثر دفعة ، واستعمل ، من أجل تحقيق هذا الغرض وعلى الدوام ، عدداً لا يحصى من الأيدي ، وذكاء نادراً ، منه تحصل العقول على القبس الذي يزكيها . إنها لمعرفة حديثة ، لا شك أنها استيقظت من جديد، خرجت على لسان إريوجينا . ونظرية الحركة هذه ، التي لا بد تُدفع بين الحين والآخر ، من الخارج ، ومن الأعلى ، لاجتياز البعد الإلهي الذي لا نهاية له ، وتقوم بالوساطة ما بين الله والأجسام المتحركة بوسيط نصف طبيعي ، ناقضها الآن أيضاً رئيس جامعة السوربون الشاب بكل قواه . فبدلاً من الأفكار التأملية المجردة ، تأمل العالم من حوله بعينين مفتوحتين ، وحصل على المعلومات من الظواهر ذاتها . والتجربة تنفي وجود كائن وسط وسيط . إن دولاب (الصقل) يدور حتى ان لم يدفع دوماً . وقد تبحر السفن في عكس التيار، حتى لو لم يحركها بشر أو حصان . وهذه الوساطة غير المنقطعة المزعومة، هي بلا جدوى ولا حاجة لها . وكما أن الطبيعة تحمل في ذاتها سبب وجودها ، فعلى هذا النحو تكمن فيها - ولا يختلف ذلك في شيء عما هو في محيط السماء - القوة المحركة وتؤثر بلا وساطة وبشكل غير مباشر .

لقد أظهرت التجربة ، أنه حين تقذف إليه بحجر ، فإنها تمنحه قوة - وعن هذا تحدث البتروجي - تعمل على دفعة وتتناقص بسبب مقاومة الهواء المستمرة ووزن الحجر إلى أن تهوي قوة الثقل بالحجر نحو الأرض . وعلاقة الاثنين ببعضهما يمكن أن تثبت رياضياً . وطبقاً لهذا التصور - بين بوريدان - أنه من غير الضروري افتراض ذكاءات تعمل على تحريك الأجرام السماوية .

« كذلك فمن غير الضروري أن يقوم الله بتحريكها ، إذا كان ذلك لا يحدث في صورة تأثير شامل ، نقول فيه : الذي يؤثر في كل شيء ، مهما كان شأنه . . . »

وبدون هذه القوة المؤثرة بشكل غير مباشر ، فالإنسان ذاته لا يقوى على المشي . ولربما كان في الواقع خطأ ، إذا ما أكد المرء بأنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يقوم بتحريك ذاته ، أو يكتب له البقاء بدون هذه القوى المطلقة المؤثرة . ويستطرد قائلاً : « ترون أنَّ آراء الفلاسفة تختلف بشكل جوهرى عن حقيقة المعتقدات الكاثوليكية » . حقيقة بوجهين !

هذه النظرية البوريدانية (نسبة إلى بوريدان) ، أصبحت أساساً لقوة محرّكة جديدة ، وإلى حين يتم اكتشاف الثقائل وقوانين السقوط .

في هذا الوقت ، أنجز الألماني ، البرت من ساكسن ، وهو مكتشف أصيل مفعم بالحوية ، أعمالاً تمهيدية هامة ، من أجل شرح حركة النجوم - أجل ومن أجل حركة الأرض أيضاً ، وسقوط الأجسام الحرّة . لقد ضبط نظرية استاذة بوريدان في القوة . ووضع نظرية الأثقال التي أّثر بها على تطور الميكانيك وعلى ليوناردودافنشي ، وكوبرينكس ، وجاليلي وديكارت .

والشخص الثالث في رابطة مدرسة أحكام الباريسية للفيزيائيين ، هو نيكولاس من اورسمي ، الذي وقف عند نفس الأسس ، وكان صاحب العنقل الألمعي ، والفكر الثاقب الحصيف ذي الأفكار الزاخرة . وقد كان في الواقع سباقاً إلى المعارف التي نسبها التاريخ إلى العطاء الثلاثة كوبرينكس وجليلي وديكارت . وقد تثبت بعكس ما قال ارسطوطاليس ، فدرّس الدورة اليومية للأرض حول محورها ، التي تقوم عليها الدورة الظاهرية اليومية للسماء . لقد قدم التقديرات لمفهوم العمل الوظيفي الحديث وللهندسة التحليلية ، التي مهد بها لغاليلي وديكارت ، والأمر هنا يتعلق بتبدلات نوعية تمثّل بواسطة رموز رياضية كتابياً . على سبيل المثال ، الخط البياني في السرعة والزمن لحركة متسارعة متماثلة الشكل سميت باسمه (نظرية أريسمي) . وقد أسدى ذلك خدمة لأستاذ اسباني عالم مقيم في باريس هو البروفسور دوفينكوس سوتو (١٤٩٤ - ١٥٦٠) لفرض صيغة صحيحة لقانون السقوط . وبعد سلفه الكبير يأتي مباشرة روجر باكون ، ليكتشف كأول شخص في تجاذب المثليين سبباً للمغناطيسية .

وثلاثتهم أقرّوا بالحركات السماوية والأرضية ، واعترفوا بالقوة الذاتية ، حين نصرف النظر عن القوة الحاصلة سواء بالرمي أو بالدفع . وهي قوة لا توضع حيز العمل من الخارج ، بل غالباً ما تقوم على الوساطة غير المباشرة لكل القوة المؤثرة المستقر في الباطن . ولا يفوتنا بأن حركة الجاذبية لدى ارسطوطاليس ، لها محركان خارجيان : وحركة السقوط تخضع لديه إلى قوة خارجية أيضاً ، مسببة عن محرك غير أرضي لا يتحرك ، وبواسطة من مسرح العرائس الأرسطوطاليس هذا ، برز مشهد العالم الجديد كبناء مختلف من الجذور تماماً . لأن ثمة أيضاً الهدف الذي يسعى إليه النقيض . هدف الصيغة الأرضية ، للاستقرار فيما هو أرضي ، وللوصول إلى نقطة استقراره الأخيرة . لأن الغرض من الحركة في نظر ارسطوطاليس هو السكون .

بقوتهم تلك ، تصدى العلماء الباريسيون الثلاثة بشدة لكل ثنائية ، وسحبوا البساط من تحت قدميها . إن حقيقة المعرفة ليست ولا يمكن أن تكون حقيقة العقيدة . وبذلك نكون قد قمنا بتوفير الخطوة الهامة ، التي انطلق منها بوريدان ، من نفس المنطلقات الميتافيزيقية لارساء علم اوروبي . وبالانتصار على أرسطوطاليس ، أتمّ بوريدان تماماً التحول الهيكلي نحو العصر الحديث .

وبالنسبة لأرسطوطاليس ، فقد كانت تلك آخر المسببات . الهدف الذي حتمّ كل المجريات : بمنزلة رأس القنبيط من الانسان . هو الذي يحدد طريقه إلى السوق - وهذا غير صحيح على الإطلاق ، لأنّ المسبب ليس رأس القنبيط ، بل القصد إلى شراء رأس القنبيط وهكذا توجب على الطريقة الأرسطوطاليسية ، أن يكون الهدف أيضاً هو السبب لكل الحوادث الأرضية . إن شجرة الزيتون مثلاً تنبت أوراقها لغرض حماية ثمار الزيتون المستقبلية . والمطر تهطل لأجل غلال طيبة .

لقد لاحظ الكثيرون هنا ، بأن شيئاً ما ليس صحيحاً . لكنه كثيراً ما اكتفى المرء بمحاولة القيام بشرح أفضل وآخر لأرسطوطاليس . إلا أن هذا الترفيع لم يؤد إلى شيء . لكن بوريدان توصل إلى هذه المسببات النهائية ، وكان

أول من وضع نظرية : كل ما يجري في الطبيعة يتم من خلال قوى طبيعية مؤثرة ، وبحسب قاعد منظمة ، وقوانين ثابتة ، وضمن شروط معينة وعلى طريقته الخاصة . وهذا يعني : حسب القوانين الطبيعة ! إن العلاقة غير المستقلة بين السبب والتأثير تعبر عن ذاتها الآن من خلال عمل حسابي » . وبذلك يكون يوحنا بوريدان قد حقق الرأي السديد من العلم ، والسبق للعلوم التطبيقية للقرون التي تلت . لقد تميزت بشكل فعلي المعرفة والعقيدة بصورة نهائية .

وفي ذات الوقت الذي تحلق فيه العلماء الباريسيون من حول بوريدان خلال النصف الأول من القرن ١٤ ، باشرت مدرسة المتعلمين في اوكسفورد الملتفة حول الرياضي والفيلسوف توماس برادواردين Bradwardine (١٢٩٠ - ١٣٤٩) ، ورئيس اساقفة كانتربيري والأستاذ Wiclifs . إن أمير الكنيسة الانجليزي هذا ، كان العقل المتنقل للكاردينال الالماني نيقولاس كوسانوس ، الذي لا زالت توجد في مكتبة في كويس بعض المخطوطات حتى يومنا هذا . إن المعرفة بالنسبة للاثنين مجتمعين حول الجهل بمعرفة الله ، هي بمثابة معرفة فعلية له أو- الجهل العارف- ولديهما معاً تتوفر القناعة التي تنطق بها مقولة برادوان : « إن الله بطبيعته ووجوده ضروري في كل مكان ، لا في العالم وأطرافه فحسب ، بل وفي الفضاء ، كما يُظن ، اللانهائي . وتوجب إذأ ، أن لا يخضع لقياس أو لوصف ، وفي بعض المدلولات ، لانهائي في الكبر والانتشار ، موجود ككل في ذات الوقت . وفي انجلترا بالذات صادفت هذه القناعة خلفها الشهرير في شخص هنري مور واسحاق نيوتن .

خطآن تاريخيان

إن مذهب الحقيقة الثنائية - أدى مرّة كخائف في حمى الدين ضد افتئات العقل ، وتارة كعلم طليق مفيد ، غير مستهدفٍ للمزعجات ، مبررٍ في ذاته ، ومن ثمّ كحجة لاذعة للجدل السفسطائي - أدى كلما اتسع دوره إلى تحرير وتقوية الوعي العلمي . بحيث أن التهديد الناجم عن محاكم التفتيش قد تفاقم ، الأمر الذي عمل بدأب على إضاءة مأساة الحالة العلمية التي لا مهرب

منها بحزم ضوئية باهرة من أكداس الخطب في بيثة مسيحية .

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه هنا : هل الصدام بين الايمان والمعرفة شيء لا مناص منه ؟ إن التاريخ الأوروبي هو الذي يمحطنا على مثل هذا الاعتقاد . وهو الشيء الذي ينطبق على القناعات السائدة حتى يومنا هذا .

والسؤال الثاني : هل ينسحب هذا التضارب على سائر الأديان وفي كل الأزمان؟ إننا نعارض هذه النظرية . أجل ، لنؤكد أنها لا تسري أيضاً ، حتى بالنسبة لأوروبا في القرون الوسطى . إنها تحفي وراءها نقيضاً آخر .

إن التعارض المزعوم الذي لا بد منه بين العقيدة والمعرفة ، هو في الواقع تناقض بين بناءين مختلفين في الفهم ، تناقض بين اسلوبين في التفكير من نمطين مختلفين .

ومن البديهي أن السلطتين المعترف بهما ، الديانة المسيحية من جانب ، والفلسفة الأرسطية على الجانب الآخر - اللتين قامتتا على ضربين مختلفين من الثنائية - الشرقية واليونانية ، لم يكن من سبيل إلى التوفيق الكلي بينهما بدون ربط .

أجل ، لقد كان العزم على الجمع بين التصميمين الثنائيين هذين مع علم غير ثنائي قائم بذاته بدون جدوى ولا أمل . في حين أن التناقض ما بين دين وعلم من نفس النمط - كلاهما أحادي - توافرت فيهما منذ البداية تطابقات بديهية - ما كان لهذا التناقض أن يجد طريقه إليهما . ذلك أنه ، هذا العلم الأوروبي لم ينشأ فقط من وحدة فكرية أوروبية . لقد أقام العلم استفساراته ، المبادئ والنتائج على أساس فكري موحد .

أجل ، إن هذا العلم قد نما من تدين أوروبي توحيدي . وفي معرض نظرية عدم قابلية الدمج ما بين العقيدة والمعرفة ، فقد تأكل في الوعي الأوروبي ميلٌ آخر لا يتسنى إيقافه وإن كان ذا وزن أرجح وبشكل جوهري : فكما عاشت المعرفة والعقيدة في أوروبا في تنافس جنباً إلى جنب ولا زالت - فلا بد إذاً - هكذا

إِسْتَنْجِجِ وبدون تمحيص - أن يكون العلم ، والمعرفة « ملحداً » ، « مادياً » ،
« عدواً للدين » .

إن الإنزال الخاطيء المعتاد المطلق للدين أو المعتقد نفس منزلة الديانة
المسيحية - على قدم المساواة - هو الذي أدى إلى ارتباكها في هذا الصدد . لقد
استبدل الناس تحرير العلم من اشراف أولياء الأمر اللاهوتيين للديانة المسيحية
خطأً ، بالتحلل المطلق من الارتباط الديني . غير أن المرء تغاضى عن هذه
النقطة الجوهرية : وهي أن الفضول العلمي ، والاستفسار عن مسببات الأشياء
وقوانينها ، كانا منذ البداية وعلى الدوام تساؤلين دينيين . أجل تساؤلًا دينياً بحث
وإن لم يصدر عن تدين مسيحي ، بل عن غير مسيحي ، تدين آخر وحيد
التوجه .

لم يكن لدي المسيحية ، كهدي سماوي ، أسئلة توجهها إلى العالم . ولقد
سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة لها . أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هي
السبب في انزال الخطيئة إلى العالم ؟

أو لم يصف الله حكمة العالم بأنها غياب ؟ « ورفض بولس كل أنواع
البحث عن الحقيقة » .

وإلى جانب الطريق الروحية ، الوحيدة الموصلة للروح ، إلى الله ، اعتبر
كل طريق للبحث عنها في أي مكان آخر عدا الوحي خاطئاً مارقاً . ولقد جرب
ذلك كل من فلهلم - كوش وجلبرت دي لابور de la Porée ، وكثيرون غيرهم
على أبدانهم . أن تكون محباً للإطلاع ، وأن تبحث بعد ما بُشِّر بالانجيل ،
امران جعلهما يترتوليان وأوغسطين ورئيس الأساقفة تمبير Tempier - الذي كان
ظمأه إلى المعرفة واضحاً - اثماً عظيماً وخطيراً . هذا فضلاً عن أن توماس -
اكوين ، قد تحدث إلى الراغبين في معرفة الأشياء التافهة في القرن ١٣ عن
الضمير السيء .

« إنها طبيعة الأشياء . هي التي تنورنا بالنمط والطريقة التي بني بها
الكون » .

كان ذلك رأي هونوريوس تلميذ اريوجينا في القرن ١٢ ، ردّاً على الذين يزدرون الأشياء التافهة ، التي هي في رأيه انبساط المادة التي يمسك بها الله . وهو الاحتجاج المزامن الذي رفعه فلهم - كوش تلميذ إريوجينا النورماني ضد تحذير الروحيين إليه بضرورة التقيد باستقاء المعلومات التي تُحدد بها مهمة وأوجه استعمال الطبيعة من الكتاب المقدس - وهي مهمة مفهومة دينياً تماماً : « البحث في أصل الأشياء وقوانين نشوئها ، تلك هي المهمة الكبرى للمؤمنين » . وحين شهّر الراهب أبسالوم Absalom من دير سانت فكتور مرتعشاً ، بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض ، وطبيعة عناصرها ، موقع النجوم وطبيعة الحيوانات ، وقوة الرياح ، وحياة النباتات والديدان ، تأفف فلهم من الحق الذي أعطته لنفسها تلك الرهبانية الغريبة عن الطبيعة : « أنتم الذين لا تعرفون قوى الطبيعة ، تريدون أن نظل مشدودين إلى جهلنا ، حين ينازعوننا حقنا في البحث عن الأسباب ، ويصبون علينا اللعنات بخشونة .. الأفظاظ يتمسكون بعقيدة دون فهم .. وحين يبحث أحدهم ، يصيحون : إنه كافر .. » .

لِمَا لَمْ تَسْتَطِعِ الْعُلُومُ الطَّبِيعِيَّةُ

النشوء وسط فكرة العالم المزدوج ؟

إن الديانة المسيحية السماوية ، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم ، لأنّ مشيئة الله ليست موضع سؤال ، بل لأنها فضلاً عن ذلك غير قابلة للحساب . وفي رأيها ، لم يكن ثمة باعث فقط ، بل وحقّ أيضاً في تقصي الأسباب .

واستناداً إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته) ، كما رسمها اللاهوتيون طبقاً للانجيل ومؤازرة من خادهم - سواء بأوغسطين ، أو افلاطون ، أو الافلاطونية الجديدة ، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية ، فإنه لم يكن بالامكان أبداً نشوء علم طبيعي . لماذا ؟ إن الثنائية المسيحية عملت على رقد

الطبيعة بنظام خارجي ، عن طريق إله أخروي ، دخل في هيئة غيبية ، سواء أكان بمعجزة ، بالرحمة أو العقاب ، بقمص صورة انسان ، في عالم أبدي تسيطر عليه العفاريات ؛ وبعد أن انسحب ، ما انفك يتدخل يومياً من خلال سر الأقداس ، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيرة .

هل كان في الامكان تقديم علم طبيعي ، طالما الاعتقاد سائدٌ ، بأن الحادثة الطبيعية تُقرر بواسطة مشيئة تكتشف لإله مقتدر ، برحمته أو نقمته ، بعدما حرم على الانسان السؤال ؟ كل شيء يلفه الضباب . إثم ! بغير نفع . طالما أن كل رد كان سيكون على النحو التالي : « مشيئة الله » .

هل أمكن للعلم أن يتقدم على أساس الثنائية الافلاطونية والافلاطونية الجديدة ، طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية لا شيء ، مجرد ظل واهن لعالم الفكرة ، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها ، عبثٌ ، لا يستسيغه العقل ، كما قال أفلاطون : « يجب بدلاً من ذلك أن ننكب على المهام المجردة ، سواء في الفلك أو الرياضيات والأجرام السماوية ، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك » .

هل كان في الامكان أن يتقدم علم طبيعي أصيل على تربة الازدواجية - الأرسطوطاليسية - التوميسي (نسبة إلى توماس - اكوين) ، على النحو الذي كان مسيطراً فيه على كل الفكر الفلسفي ، الذي من أجله ، وجب على الروح الإلهية أن تطبع الصيغ لمادة مثاقلة ، سلبية ، جموح ، وأن يتسبب صانع غيبي على الدوام وتدرجياً من أعلى إلى أسفل في سببية مخففة لكل مرحلة وكل تغيير طارئ - وهو ما يسمونه هنا حركة - مهزلة الحركة ، التي شهَّر فلهم فون اوكان من اضحوكتها - والسهم المطلق ، كما يرى ارسطوطاليس بمتهى الجديدة - الذي تجذبه ؛ فجأة زوبعة ناشئة في الهواء نحو الأمام ، أو أن تُعرَّف الغايات من الحدث الطبيعي مثلما كان بالنسبة لشجرة الزيتون ، تنبت الورق كي تحمي الثمر ؟

هل أمكن أن يشهد العلم الطبيعي تطوراً ، حيث تتبدل الحتمية كتبدل

الأمزجة بدلاً من النفاذ العام ، أي أن تكون القوانين سارية اليوم ، لاغية في الغد ، أو أن تسري هنا حيث أقف وتتعطل في مكان آخر ، وفي منطقة الأجرام السماوية شيء آخر ، أبدية خلافاً لما هي عليه في واقع الحال في النطاق الأرضي . لو أنه لدى التوجه ماذا لم يكن في اللعبة ملائكة أبداً ، ولا مهارات إلهية تعمل على تأمين الحركة دوماً - أجل ، لو قدّر الله وأوضح المؤتمر الباريسي صحة هذا السؤال - كما أنه جعل الشمس ساكنة لدي Gibeon ، فإن قدرة مشيئته المطلقة قادرة أن تجعل كل الأجرام في يوم ما ساكنة ؟

ربما كان من الخطأ الوقوف على غرائب تصور القرون الوسطى عن العالم بهذا السرد . فلقد قام أيضاً على فكر ساذج متخلف ، نعتبره بمثابة مرحلة طبيعية وضرورية من أجل فكرنا المتقدم من خلال النجاحات العلمية ، ونسخر منه كشيء يدعو للأسف . من الذي يريد أن يمنح وثيقة للسذاجة اليونانية الأكبر من حجمها ؟ إن الأمر لا يتعلق هنا بالقيمة أبداً ، بل الأمر يتعلق باختلافات جوهرية .

ولنفس السبب السابق ، فمن الخطأ كذلك أن نتوقع بأنه كان من الممكن أن ينشأ تطور عن تلك النظريات وبالكبت الديني والإلهي خطوة فخطوة وتدرجياً علم طبيعي أوروبي ؟ كذلك يجحد نفسه من يعتقد أحياناً بأن استبدال وجهة النظر والأشياء ، وصرفها عن الله نحو الطبيعة ، هي التي أدت إلى تطوير العلوم الطبيعية .

إن الفكر الثنائي لم ولن يستطيع أبداً أن يأتي بالعلم بالمفهوم الأوروبي . إنه لم يعمل على إعاقة وعرقلة نشوئه فقط ، بل ربما عمل على منع أبحاثه مطلقاً . أو لم يسر به المنحرفون الكفرة بالاحتجاج والخطر المهدد للجسم والحياة نحو النور؟ وقد استدعى الأمر أن تبقى الأمور على وضعها الراهن ردحاً طويلاً من الزمن .

الشروط الفكرية المسبقة للعلم الأوروبي

سبق وأن قلنا بأن العلم ، إنما أصبح ممكناً بفضل أسلوب فكري مخالف للثنائية تماماً . أجل ، بسبب إله ومعتقدٍ مخالفين تماماً . بأي شيء تهباً ، ومن ثم : هل أهلت هيكلية الوعي الأوروبي هذه بالذات ، الفرنسيين والالمان ، الانجليز والايطاليين ، الهولنديين والأسباب والاسكندنافيين للحصول على العلم الطبيعي الأوروبي ؟

إن التحول القاطع في التفكير يبدو جلياً في مفهوم المادة والتحول الجذري في معناها . كانت المادة ، بالصدفة ، واهنةً ، ثقيلة ، سلبية ، جموحاً لدى أصحاب نظرية الازدواج في ذلك العصر . والمادة منذ ظهور دافيد - دينانت ، والمعلم اكهارث ، وانتهاء نيكولاس كوسانوس - كطبيعة مخلوقة ، هي انبساط الطبيعة الخالقة ، أي الله ، الذي تحتويه الطبيعة في داخلها ، أو كما عبر عنها الاسكتلندي : « من ذاته يكتسب الله الفرصة لتجلياته وظواهره . لأن الأشياء كلّها ، منه ، به ، فيه ، وإليه . والمادة التي صنع منها العالم كذلك منه ، وفيه ، وهو فيها ، طالما أنه يمكن التعرف إلى وجودها .

وبجزم قاطع ، كما لم نعهده لدى أي فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى المبكرة ، ناضل آريتموم - باريس ودافيد - دينانت ضد فكرة الانقسام الغيبي المزدوج ما بين المطلق الذي تشكل الروح والمادة وحدته الأساسية ، والمادة الجامدة التي تعتبر - كما يزعم ، منفصلةً عنه انفصلاً كلياً ، هي المحتوى لكل قواه الصائرة .

فيها وليس خارجها يجد المرء أسباب نشوئها وصورورتها . وإليها ذاتها ، وهي الوجود الوحيد للحقيقة ، يتوجه المرء بأسئلته في استسلام للمشاهدة والتجربة والتقصي والتجريب والقياس ، لأن كتاب الطبيعة مكتوب ، كما يقول روجر باكون ، بحروف حسابية .

وبالنسبة لهم جميعاً - فلاسفة الطبيعة - برنهارد وتيري - شارتر ، فلهلم - كوش ، جلبرت دي لابور ، وهونوريوس - ريجنسبرج ، فريدريك الثاني ،

البرت الكبير ، وجوردانوس نيموراريوس ، جروسي تيسته ، روجر باكون ،
وسيجر باربانتي ، يوحنا بوريدان ، البرت - تساكش ، نيقولاس أوريسي ،
وتوماس براد واردين ، وكما ورد في العرض الجامع الضخم لنيكولاس -
كوسانوس ، فإن الطبيعة هي مصدر الايجاء للألوهية في كليتها ، جزئياتها
وضخامتها . في الأرض كما في الكواكب ، الطبيعة ذاتها في كل شيء ، مشتقة
من نفس العناصر ، وتتحرك في كل مكان من قبل القوى المشابهة المؤثرة في
داخلها بصورة غير مباشرة ، والخاضعة للقوانين الحسابية المماثلة المعترف بها .

وباختصار : إن العلم الطبيعي الأوروبي كان ممكناً فقط على أرضية ايجاد
تفسير ديني آخر للطبيعة ، وعلى المفهوم الإلهي لمغزى المادة ، التي ، لا كما يقول
توماس - اكوين عنها ، بأنها مصابة بكل ما يخطر على ألبال من شوائب ، بل هي
سامقة للانبساط الإلهي المنظور ، المحسوس ، الذي تتحقق وحدته وتنسجم في
شئ الصور - وتتجسم « وتتجمع لتتحد انطلاقاً منها . . » لتتوحد . .

وسواء أكان السؤال أو عرضه ، فقد تحددا من خلال نمط التفكير ، من
خلال هيكلية الوعي الأوروبي ، الذي لم يصبح قادراً على التوصل إليها إلا بعد
أضرار شتى من التحكم العقلاني الأجنبي . وبعد أن تحرر من نمط التفكير
الغريب عنه بدفاع طويل النفس ، بحيث أمكنه الشروع في علم طبيعي أوروبي
الأسلوب .

إن سائر العلوم الأوروبية تشترط وقبل التوجه بأي سؤال إلى الطبيعة ،
وقبل التجربة والبحث ، ستأسس تنبع من مبدأ واحد :

١ - الايمان ، وعبادة أدق ، اليقين بوحدة حقيقة الوجود والموجودات ،
الله والطبيعة ، وكذلك العقل والمادة ، الروح والجسد ، التي - لم تتناثر بواسطة
الحدود أو التناقض بين مادة غير حقيقية ، وحقيقة الفكرة الساطعة أو الصيغة
الموحدة للطبيعة ، إلى ثلاثة عوالم منفصلة تماماً - سماء - أرض - وجهنم - أخروية
ودنيوية .

٢ - وعلى أساس هذه الوحدة والشمول لكل أجزاء العالم ، وتشابه المادة في الكون كلّهُ ؛

٣ - وعلى أساس تلك الوحدة ، (التطابق) أو تجامل الأضداد في كل المجريات وعلاقة التبادل ، والتأثير المتبادل للقوى الفاعلة ؛

٤ - حتمية سريان نظام داخلي ، لا يتلقى ايعازاً من الخارج ، ولا يمكن أن يخرج بتدخل فردي من إله غيبي ، ولا في مناطق مختلفة كمدارات النجوم التي تختلف عما هي عليه فوق الأرض ، أو المختلفة عنها في العنصر كالنباتات والحيوان والانسان .

٥ - وبسبب تغلغل الوحدة والحتمية والقناعة في ادراك رياضي كمي لحقيقة الطبيعة ، بدلاً من الوصف النوعي للمواد وتعاطفها وميوها ، كالعناصر : الأرض ، الماء ، الهواء ، والنار .

٦ - حتمية التحرك الداخلي ، ورتخ أحداث الطبيعة ، التي لا ترى الكمال في اللاحركة والاستقرار ، واستحسان الصيرورة التحول المستمر ، والتطور ، والقوى المؤثرة في كل شيء بصورة غير مباشرة في كل شيء ، التي لم تُستدع بواسطة الشوق إلى هدف أبدي خارج الطبيعة ، أو هي في حاجة إلى محرك دفعة دفعة ، ومرّة وإلى الأبد ، ليست الخليفة الجاهزة ، الجامدة ، النهائية ، المحدودة زماناً ومكاناً من لدن خالق ، دفعها مرّةً ، ومن ثم تركها وشأنها ، والتي يدعها تخفي بناء على مشيئته .

لقد اختط نيكولاس - كويس (١٤٠١ - ١٤٦٤) في السيرة العقلية لأحد الاسكتلنديين ، اريوجينا ، والمعلم اكهارت ، تيري من شارتر ، وتوماس برادوين ، بمفرده ، وبدافع من فكره ذي الوتيرة الواحدة ، صورة الوجود المحركة الوحيدة . لقد قدّم لصورة العالم الأوروبية بفكرته عن وحدة الأضداد عمقاً إضافياً . لقد قدّم لنفسه شخصياً ولتلامذته تلقائياً من خصب دافق كما قدّم للمعرفة العلمية حول الطبيعة . عنه صدرت نبضات قوية جديدة . ومن خلال الاصدار الباريسي لمؤلفاته التي أولاهها Faber Staplilersis اهتمامه ،

أشعتْ نحو فرنسا ذاتها إلى Bouillé ، مارغريت - نافارا وريدروت ، ونحو ألمانيا إلى كبلر ، وإلى ياكوب بوهمه وكثيرين غيرهم ، ونحو انجلترا إلى هنري مور ، ونيوتن ، ونحو إيطاليا إلى ليوناردو دافنشي ، فيسينوبيكو ، وبصفة خاصة إلى جوردانو برونو ، ومنه انتقلت إلى ديكارت ، لايبنيس ثم كانتْ ، جوته وشلبخ . وبذلك امتد فكره بعيداً فوق المعرفة غير المباشرة لأعمال كوسانو ومنها إلى الوعي الأوروبي .

ليوناردو دافنشي

وفي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، نجد شخصية غير اعتيادية . تميزت بقوة خلاقة فريدة معطاءة ، بصفته رساماً وخطاطاً - مفكراً وباحثاً متنوعاً ، ومبتكراً عبقرياً شجاعاً . أخفى إنجازه عن مجتمع جاهل تقريباً بحوار مثير مع نفسه ووحدته .

ولفت الصبي الأنظار بوسامته وبطبيعته الهادئة . ولقد دفعه فضول لا يرتوي ردهاً من حياته - فيما هو منظور - بما قدمته له حواسه بشكل فياض ، سواء أكان في العضوي أو غير العضوي ، وفي حقل التشريح والجيولوجيا ، الفيزياء أو الفلك لمباشرة ما لا يقع تحت دائرة النظر في ذات الوقت . وقد فتش في مختلف المجالات دائماً عن أصول العلاقات وعن قانونيتها (حتميتها) ، التي تسكن في الظواهر الطبيعية . فمن أي معين يا ترى ، نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب ليشكل حدثاً عالمياً ؟

لقد نظر بتقدير أسمى ، لأن يكون فيلسوفاً على أن يكون مسيحياً . وصدم بذلك معاصريه . أنه الفيلسوف الذي قفز بفلسفته إلى ما فوق الكائنات الطبيعية التي تقع قوتها الفاعلة والخلاقة والمنعشة في ملكوت الله . وثمة مخطوط يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٩٠ ، كُتب بخط يده ، فيه يظهر بجلاء الأثر القوي الذي تركه فيه الأسقف الألماني كوسانوس من خلال مؤلفه .

والطبيعة لديه - أيضاً - انبساط للربوبية التي تتسع لكل شيء - وهي في